ابن حزم بين الدين والفلسفة في كتاب "الاخلاق"

للدكتور ناجي التكريتي

استاذ مساعد بقسم الفلسفة

خلاصة البحث :

دراسة لكتاب الاخلاق للفقيه الفيلسوف ابن حزم الاندلسي ، حيث وجدت ان ابن حزم رغم انه فقيه مسلم، الا انه بنفس الوقت قد اطلع على الفلسفة لاسيما اليونانية ، حيث يعالج مشاكل كثيرة بروح الفقيه الفيلسوف . فهو يمزج بين الدين والفلسفة .

ومن الامور الفكرية التي عالجها في كتابه : العقل والنفس والفضائل والرذائل والممارسة في الاخلاق والزهد في الحياة والسبيل الى السعادة وطريق الصداقة والمحبة . وكل ذلك عالجه بطريقة الفيلسوف الفقيه الناصح الى الطريق المستقيم .

وقد كشفنا في بحثنا هذا مدى تأثره بالقرآن الكريم والحديث الشريف وبنفس الوقت تعمقه وفهمه للنظريات الفلسفية اليونانية في الاخلاق لاسيما ارتكازه على افلاطون وارسطو في أرائه الاخلاقية .

وذكرنا اخيرا ان ابن حزم ، رغم مزجه للآراء الدينية بالفلسفية ، الا ان الروح الدينية لها السيطرة على الكتاب .

تمهيد :

ابو محمد على بن احمد بن سعيد بن حزم الاندلسي القرطبي المتوفي سنة ٤٥٦ هـ فقيه ظاهري مشهور ، له تصانيف كثيرة في مختلف فروع المعرفة .

ولابن حزم كتاب في الاخلاق نشر عدة مرات بعناوين مختلفة متقاربة ، فمرة باسم كتاب الاخلاق والسير في مداواة النفوس ، وتارة باسم فلسفة الاخلاق

وثالثة تحت عنوان كتاب الاخلاق[1] .

وغرضنا من هذا البحث ان نبين كيف ان ابن حزم كفقيه مطلع على الفلسفة، لاسيما اليونانية ، يهرج في معالجته للقضايا الاخلاقية ، بين ما تمليه عليه الشريعة الاسلامية وبين ما يوافقها من الفلسفة .

فالكتاب يبدأ[2] بالصلاة على النبى محمد صلى عليه وسلم ، وينتهى[3] بالدعوى لعمل الخير على سنة النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

ولكننا سنرى في ثنايا الكتاب كيف يمزج ابن حزم الاراء الفلسفية بالتعاليم الدينية دون ان يشير الى ان هذه الفكرة الفلسفية او تلك ، اخذها او تاثر بهذا الفيلسوف او ذاك اذ انه كتب الكتاب بصورة علمية على هيأة نصائح او حكم اشبه بالنصـــائح .

ولابد من ذكر شيء يلفت النظر ، هو ان الكتاب لم يؤلف في فترة معينة من حياة ابن حزم ، بل يظهر انه انفق في كتابته زمنا طويلا حيث يذكر انه جمعه بمرور الايام فهو يقول : « حتى انفقت في ذلك اكثر عمرى ، وانرت تقييـــد ذلك بالمطالعة له والفكرة على جميع اللذات»[4] فابن حزم يعترف ايضـــا ان الكتاب ليس وليد الخاطر وانما نتيجة قراءات لكتب سابقة كثيرة .

ولعل اهم القضايا الاخلاقية التي وردت في الكتاب هي :-

١ - العقـــل :

يستعمل ابن حزم كلمات : العقل والتمييز والنطق والفكر ، ويريد بهـــا القوة العقلية القادرة على تمييز الاشياء والتصرف في المعارف والصناعات ، ثم لا يلبث ان يقول : وهذا الذى يسميه الاوائل النطق[5] .

فالعقل عنده[6] هو الذى يدبر امور الانسان ، وان العاقل هو من لا يفارق ما اوجبه تمييزه[7] ، حيث يميز عيوب نفسه ويسعى الى قمعها ، وعكس العاقل الاحمق الذى يجهل عيوب نفسه وذلك لضعف تمييزه[8] . ورغم ان ابن حزم لا يذكر اسم هؤلاء الاوائل ، فمما لاشك فيه انه يقصد الفلاسفة والمفـــكرين

السابقين على زمنه والذين بحثوا في العقل واهميته للانسان • فارسطو[٩] يقول ان العقل هو الذى يميز الانسان عن الحيوان • وابن حزم[١٠] يشابه ارسطو عندما يقول ان العاقل يغتبط بقوة التميز التى ابانه الله بها عن السباع والبهائم والجمادات • كما ان ابن حزم ياتي بمثل على كمال العقل ، فيذكر أسم الحسن البصرى وافلاطون[١١] وبلاشك ان الاول يمثل عقل رجل الدين والثانى يمثل عقل رجل الفلسفة •

ان العقل الذى تميز به الانسان عن الحيوان والجماد ، يجب ان يستعمل في اسعاد الانسان ، وذلك باستعمال الطاعات والفضائل واجتناب المعاصى والرذائل[١٢] ومن الجدير بالذكر ان كلمتي الطاعات والمعاصى يستعملها الفقهاء ورجال الدين ، وان كلمتى الفضائل والرذائل يستعملها الفلاسفة في التعبير ، ولكن ابن حزم يجمعهما معا ، ثم لا ينسى ابن حزم ان يستشهد بالقرآن الكريم مذكرا الذى يعصي ربه فلا عقل له[١٣] قال الله تعالى : (وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير) • ثم قال تعالى مصدقا لهم : (فاعترفوا بذنبهم فسحقا لاصحاب السعير) •

اللذة العقلية عنده اعظم من اللذات الجسدية ، ولهذا فان الحكيم والعالم والعاقل تركوا اللذات الجسدية مؤثرين طلب الفضائل عليها[١٤] ولهذا فابن حزم[١٥] يحث على طلب العلم ، لان العلوم برايه[١٦] تزيد العقل جودة وتصفية من كل آفة ، ولم ينس ان ينصح بالعلوم التي تقرب من الله تعالى والوصول الى رضاه ، لان العقل ـ حسب رأيه ـ لا ينفع ان لم يؤيد بتوفيق الدين[١٧] وان العاقل لا يرى لنفسه ثمنا الا الجنة[١٨] وينصح ابن حزم[٩١] بحضور مجالس العلم والاستزادة منه • كما انه يرى ان العاقل متعوب في الدنيا ، وكذلك فأن العاقل مستريح ، فما تعبه فيما يرى من انتشار الباطل وغلبة دولته ، وبما يحال بينه وبين الحق من اظهار الحق ، واما راحته لانه لا يهتم بما يهتم به سائر الناس من فضول الدنيا[٢٠] ولذا فابن حزم ينصح بطرح المبالاة بكلام الناس واستعمال المبالاة بكلام الخالق عزوجل لان لا احد يسلم من طعن الناس وعيبهم • بل يذهب اكثر من ذلك ويقول ان على الانسان ان يغتبط بذم الناس اياه اكثر من اغتباطه بمدحهم اياه ، لان ان كان المدح بحق اسرى في العجب فافسد بذلك فضائله ،

وان كان الباطل فهو صار مسرورا بالكذب ، اما الذم فان كان بحق يمكنه ان يتجنب ما يعاب فيه وان كان بباطل فصيره ، اكتسب فضلا زائدا بالحلم [٢١] .

ولعل خير فقرة ننهى بها رأى ابن حزم في العقل ، هذه الابيات الشعرية التي يقول انه قالها في الاخلاق [٢٢] .

انما العقل اساس	فوقه الاخلاق ســـور
فحلي العقل بالعلـ	ـم والا فهـو بـــود
جاهل الاشياء اعمى	لا يرى حيث يدور
وتمام العلم بالعد	ل والا فهـــو زور
وتمام العدل بالجو	د والا فيجـــــور
وملاك الجود بالنجد	ة والجبن غـرور
عف ان كنت غيورا	ما زنى قط غيـــور
وكمال الكل بالتق	وى وقول الحق نور
ذى اصول الفضل عنها	حدثت بعد النذور

فنرى كيف ان ابن حزم يرى ان العقل اساس الاخلاق ، ثم لا ينسى ان ينصح صاحب العقل بالتحلى بالعلم والا فلا فائدة من العلم . كما نرى خـــلال الابيات الشعرية كيف انه داخل فضائل قوى النفس الثـلاث مـع بعضها بنظـــم لطيف دون ان يشير الى اصول الفكرة الفلسفية فالمعروف ان اول فيلسوف قسم النفس الى ثلاث قوى هو افلاطون [٢٣] ، وهى القوة العقلية والقوة الغضبيـــة والقوة الشهوانية ، ولكل قوة فضيلة ، ففضيلة القوة العقلية هي الحكمة ، وفضيلة القوة الغضبية الشجاعة ، وفضيلة القوة الشهوانية العفة ، ولابد لهذه الفضـــائل الثلاث من فضيلة رابعة توازن بين قوى النفس ، وهي فضيلة العـــدل . وحتى ارسطو [٢٤] في تقسيمه لقوى النفس بقى الى حد كبير تحت تأثير اســـتاذه افلاطون . فابن حزم يستعمل فضيلة العلم ليحلى بها العقـــل ، وكذلك يذكر فضيلة العفة ، اما فضيلة الشجاعة فيستعمل بدلها كلمة النجدة ، ثم لا ينسى فضيلة العدل ، لان اذا لم تستعمل هذه الفضيلة فهناك يحصل الجور . وابن حزم كفقيه مسلم فلابد اذن من ان يجمع بين الفضائل الفلسفية والفضائل الدينية ، فيضيف

كلمات التقوى والحق والنور ، ليقول في اخر بيت ان هذه هي اصول الفضائل . وكذلك في الابيات الثلاثة الاتية[٢٥]

زمام اصول جميع الفضائ ... ل عدل وفهم وجود وباس
فعن هذه ركبت غيرها ... فمن حازها فهو في الناس رأس
كذا الرأس فيه الامور التي ... باحساسها يكشف الالتباس

فنراه يجمع الفضائل الافلاطونية الاربع في الشطر الثاني من البيت الاول ، ثم يعقب بالبيتين الاخيرين ان كل الفضائل تتفرع عن هذه الفضائل الاربع الرئيسية ، ثم يشير صراحة الى ان الرأس هو المدبر للامور .

٢ ـ النفس :

يؤمن ابن حزم [٢٦] بان وجود النفس سابق لوجود الجسد ، كما انه يشير الى ان النفس تنسى ، عند حلولها بالجسد ، ما كانت فيه في دار الابتداء قبل حلولها في الجسد ، ويقول ان النفس تغفل عما كانت فيه كغفلة من وقع في طين غمر عن كل ما عهد وعرف قبل ذلك .

يذكر ابن حزم بالفقرة الاخيرة ، بنظرية التذكر السقراطية[٢٧] حيث يذهب سقراط الى ان النفس قبل حلولها بالجسد كانت تعلم كل شيء ومن ثم نسيت كل شيء عند حلولها بالجسد ، ولذا فالتعلم ما هو الا تذكر لما كانت تعلمه النفس قبل حلولها بالجسد .

الانسان عند ابن حزم هو النفس ، واما الجسد فمستقل ، ويضرب مثلا بان المرء يسرع بدفن جسد حبيبه اذا فارقته نفسه ، واسفه لذهاب النفس ، وان كانت الجثة حاضرة بين يديه ، ولذا فالنفس عنده هي الذاكرة الحساسة المتلذذة المتألمة[٢٨] ومما لاشك فيه ان هذه الفكرة سقراطية ايضا اذ ان الجسد عند سقراط آلة ، وان النفس هي الدراكة الحساسة المتلذذة[٢٩] .

بعد هذا يتكلم ابن حزم عن قوى النفس الثلاث ، دون ان يشير الى تقسيمها صراحة ودون ان يذكر مصدر الفكرة الفلسفية . وقد اشرنا قبل قليل ان

افلاطون اول من قسم قوى النفس الى ناطقة وغضبية وشهوانية ، وعنه اخذها واستعملها فلاسفة ومفكرو الاسلام[٣٠] فابن حزم كفقيه يرغب في الاخرة والعمل لها ، ولذا فهو يسدى النصيحة على هيأة حكمة قائلا : طالب الاخرة متشبه بالملائكة وطالب الشر متشبه بالشياطين وطالب الغلبة متشبه بالسباع وطالب اللذات متشبه بالهائم[٣١] فنلاحظ كيف استعمل قوى النفس الثلاث بحكمة دينية ، ثم لايفتأ ان يضيف ان العاقل لا يغتبط بصفة يفوقه فيها سبع او بهيمه ، وانما يغتبط بتقدمه في الفضيلة التي ابانه الله بها عن السباع والبهائم وهي التميز ويستشهد[٣٢] بآية كريمة من قوله تعالى : (واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى) .

فرغم ان ابن حزم يريد بهذه الاية الكريمة محاربة الهوى ، الا انه مع هذا يفسرها فلسفيا فهو يقول ان نهى النفس عن الهوى جامع لكل فضيلة ، لان نهى النفس عن الهوى هو ردعها عن الطبع الغضبي وعن الطبع الشهوانى ، ثم استعمال النفس للنطق ، لان النفس به بانت عن البهائم والسباع[٣٣] ثم يستشهد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لاتغضب) . وامره ان يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه ، فلم يلبث ابن حزم ان يفسر حديث رسول الله كما فسر قوله تعالى سابقا ، حيث يقول ان النهى عن الغضب هو ردع النفس ذات القوة الغضبية عن هواها وفي امره بان يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه ، ردع النفوس عن القوة الشهوانية ، وجمع لازمة العدل الذى هو فائدة النطق الموضوع في النفس الناطقة[٣٤] .

لابد من ذكر ملاحظة حول معالجة ابن حزم لقوى النفس ، فهو كفقيه ، وقد استشهد بقول الله ورسوله ، لم يستعمل كما ذهب فيما بعد الغزالى[٣٥] المتوفى سنة ٥٠٥ هـ وابن قيم الجوزية[٣٦] المتوفى (سنة ٧٥١هـ) حيث قسم كل منهما النفس الى ثلاث قوى ، واستعملا كلمات قرآنية في ذلك ، فهناك النفس المطمئنة والنفس الامارة والنفس اللوامة . ولكن مع هذا عند شرحهما لصفات كل نفس من هذه النفوس الثلاث ذهبا مذهبا فلسفيا افلاطونيا ، فكل منهما عرف النفس المطمئنة كما عرف افلاطون النفس الناطقة والنفس الامارة بالنفس الغضبية والنفس اللوامة بالنفس الشهوانية .

٣ ـ الفضائل والرذائل :

يكاد يكون كتاب الاخلاق ما بين نصيحة لاقتناء الفضائل او تحذير من اتيان الرذائل او كما يعبر عنها احيانا بالطاعات والمعاصى والفضيلة عند ابن حزم علم والرذيلة جهل ، وان الذى يستعمل الفضائل يعلم حسنها فياتيها ويعلم الرذائل فيجتنبها .

فاذن للعلم حصة في كل فضيلة ، وللجهل حصة في كل رذيلة[٣٧] ولكن مع هذا يستدرك ابن حزم من انه رأى كثيرا من عامة الناس يسير سيرة فاضلة ، كما يذكر انه لاحظ كثيرا ممن طالع العلوم ووصايا الحكماء ، ولكن مع هذا فهو شرير الخلق خبيث السيرة[٣٨] .

من الجدير بالذكر هنا ان سقراط[٣٩] اول فيلسوف قال بان الفضيلة علم والرذيلة جهل . كما ان ابن المقفع[٤٠] قد سبق كثيرا من مفكرى الاسلام بقوله ان على الانسان ان يعمل الخير لانه خير بغض النظر عما يعود من فائدة ولذه ، ويجب اجتناب الشر لانه شر ، لا لاننا لا نحبه .

الفضائل عند ابن حزم اربع العدل والفهم والنجدة والجود ، وعنها تتركب كل فضيلة وكذلك اصول الرذائل اربعة ، هي الجور والجهل والجبن والشح ، وعنها تتركب كل رذيلة[٤١] وهذه بلاشك فضائل قوى النفس الثلاث عند افلاطون[٤٢] فالفهم فضيلة القوة العقلية والنجدة فضيلة القوة الغضبية استعملها ابن حزم بدل كلمة الشجاعة والجود استعملها بدلا من كلمة العفة التي هي فضيلة القوة الشهوانية . واما الرابعة فهي فضيلة العدل والتي توازن بين القوى الاخرى ليحصل في النفس التوازن والانسجام .

والفضيلة عند ابن حزم وسط بين الافراط والتفريط ، لان كلا الطرفين مذموم والفضيلة بينهما محمودة (٤٣) وان المعتدل في الحياة هو من يلتزم التوسط، الذى هو الاعتدال بين الطرفين المذمومين ، وان من يميل الى الافراط او التفريط فقد ابتعد عن الاعتدال (٤٤) ـ ونظرية الاعتدال او الوسط الذهبي بين الافراط والتفريط هي نظرية ارسطاليسية منذ ان اعتبر ارسطو (٤٥) الفضيلة وسط بين طرفين مذمومين هما التفريط والافراط .

ورغم ان ابن حزم اعتمد النظريات الفلسفية في الفضائل الاربع ، او الوسط بين رذيلتين ولكنه مع هذا ينحوا منحى اسلاميا عندما يرشد الذين يجهلون معرفة الفضائل ان يعتمدوا على ما امر به الله تعالى ورسوله (٤٦) ، رغم انه لايستشهد في هذا المجال بآية قرانية كريمة ولا بحديث نبوي شريف هذا بلاشك معروف عند المسلمين فالقرآن كتاب اخلاقي • والرسول ماجاء الا ليتمم مكارم الاخلاق •

بعد ان حدد الفضائل والرذائل الاربع ، والتى قال ان كل فضيلة ورذيلة متفرعة عنهما يذكر كثيرا من الفضائل ، حاثا على التمثل بها ، وكثيرا من الرذائل، محذرا العمل بها • فالصدق عنده فضيلة مركبة من العدل والنجدة والكذب رذيلة متولد من الجور والجبن والجهل ويعتبر الكذب اقبح رذيلة ، حتى انه يعتبر الكفر نوعا من انواعه ، فكل كفر كذب ، وان الكذب جنس والكفر نوع تحته (٤٧) كذلك يذكر بعض الفضائل الاخرى كالنزاهة والحلم والقناعة ، ورذائل مثل الحرص والحسد (٤٨) فالصبر فضيلة والغدر رذيلة (٤٩) والجود ان يبذل الانسان الفضل كله في وجوه البر (٥٠) والشجاعة عنده بذل النفس للموت عن الدين والحريم وعن المستجير المظلوم ، ثم لاينسى ان يقول ان التقصير عن ذلك جبن (٥١) وحد العفة ان تغض بصرك وجميع جوارحك عن الاجسام التي لاتحل لك ، فما عدا هذا فهو عهر • كما يعتبر الوقار فضيلة وهو وضع الكلام في موضعه، وهو ضد السخف الذى يحده بانه العمل والقول بما لايحتاج اليه في دين ولا دنيا (٥٢) والوفاء فضيلة مركب من العدل والجود والنجدة ، وهو ضد الجور • اما رذيلة العجب ، فينصح ابن حزم (٥٣) من ابتلى بها ان يختلص منها وذلك فليفتش ما فيه من رذائل ، فاذا اعجب بفضائله فسيجد ان له عيوبا كثيرة • فاذا اعجب المرء بعقله ، فكل فكرة سوء تمر بخاطره تدل على نقص عقله ، واذا اعجب بآرائه فليتفكر في سقطاته، واذا اعجب بخيره فليتذكر معاصيه وتقصيره، واذا اعجب بعلمه فانها موهبة من الله وليتفكر بالذى خفى عليه وما يجهله من انواع العلم ، واذا اعجب بشجاعته فيوجد من هو اشجع منه ، وان اعجب بماله فكم من ساقط خسيس اغنى منه ، وان اعجب بنسبه فهذه اسوأ صفة لان المهم سيرته في هذه الحياة واذا اعجب بقوة جسمه فليتفكر ان البغل والحمار والثور اقوى منه • ولذلك ينصح ابن حزم (٥٤) بالعدل لان العادل بعيد عن العجب ، وذلك لعلمه بموازين

الاشياء وان حد العدل ان تعطى من نفسك الواجب وتأخذه وحد الجور ان تأخذه ولا تعطيه ، ولهذا فالعدل حصن يلجأ اليه كل خائف ولاترى انسانا يذم العدل فحتى الظالم اذا رأى من يريد ظلمه دعا الى العدل وانكر الظلم وذمه .

٤ ـ الممارسة :

الاخلاق عند ابن حزم ممارسة ، وتمام العدل عنده رياضة النفس . ويعترف ان رياضة الانفس اصعب من رياضة الاسد ، لان الاسد اذا سجنت في البيوت التى تتخذها لها الملوك آمن شرها ، والنفس ان سجنت لم يؤمن شرها[٥٥] ويضرب امثلة على نفسه وكيف كانت تسيطر عليه بعض الرذائل ، وكيف استطاع بالممارسة ان يتغلب على تلك الرذائل او العيوب كما يسميها[٥٦] حتى يذكر انه تغلب عليها عن طريق الرياضة وعن طريق الاطلاع على ماقالت الانبياء والحكماء فيذكر مثلا بعض الرذائل التى كانت متمكنة منه مثل الغضب والحقد والعجب ومحبة بعد الصيت والغلبة[٥٧] فيقول لم ازل ادواي ذلك بالامساك وتحكيم العقل والصبر الشديد حتى استطعت التغلب على هذه العيوب ورغم ان ابن حزم يذكر انه تغلب بعون الله مرة ، وانه امسك عما لايحل في الديانة ولكن مع هذا ينتهي الى القول بان النفس الغضبية اذا كانت منقادة للنفس الناطقة فهذا فضل وخلق محمود .

بعد كل ايمان ابن حزم برياضة النفس ، وكيف انه داوى نفسه من عدة رذائل او عيوب ، يأتي برأى معاكس تماما ، فهو يذهب الى ان افضل نعم الله تعالى على العبد ان يطبعه على العدل وحبه ، وعلى الحق وايثاره ، واما من طبع على الجور واستسهاله وعلى الظلم واستخفافه فليأس من ان يصلح نفسه او يقوم طباعه ابدا ، وليعلم انه لايفلح في دين ولا في خلق محمود[٥٨] الحقيقة انه لرأي غريب ان يصدر من مفكر يكتبه في كتاب اخلاقي كتبه لمعالجة امراض النفوس مع انه هو نفسه يعترف بانه داوى عيوبه ـ رغم الصعوبة التى كان يلاقيها من تغلب بعض الرذائل على خلقه ـ بالممارسة ورياضة النفس . كما ان اغلب فلاسفة الاخلاق من قبله قد آمنوا بالممارسة في تقويم اعوجاج النفس ، سواء فلاسفة اليونان أو فلاسفة الاسلام فارسطو[٥٩] يقول ان الفضيلة والحكمة

والفنون تكتسب عن طريق الممارسة • اما افلاطون [٦٠] فرغم انه اعطى المكان الاول للاستعدادات الفطرية لكنه لاينكر فضل الممارسةفي تهذيب الاخلاق واكتفى بذكر الرازى [٦١] والفارابي [٦٢] ومسكويه [٦٣] من فلاسفة الاسلام الذين أمنوا بان الاخلاق ممارسة •

٥ ـ الزهـد والسعادة :

ينصح ابن حزم بالبساطة في الحياة وترك التكلف ، ويعطى مثلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، انه لايتكلف مايحتاج اليه ، فهو يأكل التمر اذا حضر بدون خبز والخبز بدون تمر ويزور المريض من اصحابه راجلا في اقصى المدينة [٦٤] ولذلك فيقول ان تطلع النفس فيه هم وقلق [٦٥] وهو ينصح بالابتعاد عن الهم ويقول ان كل الناس في مختلف الازمنة والامكنة متفقون على طرد الهم سواء العالم او الجاهل [٦٦] وان على الانسان ان يعلم ان الدنيا ذاهبة فعليه ان يعمل للاخرة ، فالعمل باقى وجزاءه الجنة وان خير وسيلة لطرد الهم هو التوجه لله عز وجل بالعمل للاخرة ، لان العمل للاخرة سالم من كل عيب خالص من كل كدر ، وانه موصل الى طرد الهم على الحقيقة ، لان العامل للاخرة اذا امتحن بمكروه لم يهتم بل يسر اذ رجاءه في عاقبة ماينال [٦٧] •

نلاحظ ان ابن حزم يضرب مثلا للزهد وبساطة الحياة بالنبى • ولاشك ان حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت مثال البساطة في الحياة [٦٨] كما ان الخلفاء الراشدين والصحابة من بعده عاشوا حياة كلها زهد وبساطة وحثوا الاخرين على الاقتداء بهم [٦٩] كما ان فلاسفة ومفكرى الاخلاق في الاسلام قد نصحوا بقمع القوة الشهوانية والابتعاد عن شهوات الجسد مثل ابن المقفع وابى بكر الرازى والفارابي ومسكويه • كما نلاحظ ان السعادة عند ابن حزم هى سعادة الاخرة لان الدنيا فانية وكل تطلع اليها لايجلب الا الهم وان الراحة والطمأنينة بالاتجاه كليا الى الله تعالى •

ورغم ان ابن حزم ينصح بالانفراد عن الناس للسلامة ، ولكن لايغنى القطيعة ، بل يقول : ولكن اجعلهم كالنار تدن بها ولاتخالطها [٧٠] ولكن مع

هذا ينصح بمسايرة اصحاب الفضائل اهل المؤاساة والبر والصدق والصبر والوفاء والحلم وصفاء الضمائر وصحة المودة[٧١] ويحذر من مسايرة الخبثاء من الناس وجلساء السوء[٧٢] .

يرى ابن حزم ان من علامات الزهد في الدنيا ان كل انسان مهما كان ، عندما ينام ينسى كل علائق الدنيا[٧٣] ثم يأتي بمثل اخر عندما قال ابن السماك للرشيد وقد دعا بحضرته بقدح ماء ليشربه فقل له : يا أمير المؤمنين لو منعت هذه الشربة بكم كنت ترضى ان تبتاعها ؟فقال له الرشيد بملكي كله: فقال: ياأمير المؤمنين فلو منعت خروجها منك،بكم كنت ترضى ان تفتدى من ذلك؟ قال :بملكى كله :فقال: يا امير المؤمنين اغتبط بملك لايساوى بولة ولاشربة ماء ؟[٧٤] ولذا فابن حزم ينصح بشكر الله ، لانه هو الذى شق لنا الابصار الناظرة وفتق فينا الاذان السامعة ومنحنا الحواس الفاضلة ، ورزقنا النطق وسخر لنا ما في السموات والاذرض[٧٥] فعلى الانسان تعلم الخير والعمل به [٧٦] لان ابن حزم يقول انى تأملت الناس فوجدت الفاضل يحب ان يكون الجميع فضلاء والناقص يحب ان يكون الجميع نقصاء [٧٧] لذا فهو ينصح بوعظ أهل الجهل والمعاصى والرذائل ولكن باللين وليس بالجفاء والاكفهرار [٧٨] لان النبى صلى الله عليه وسلم كان ينصح برفق وقال الله تعالى فيه [٧٩] ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك . فعلى الانسان الذى ينصح الاخرين ان يكون قدوة لهم بعمل الخير ، لان اقبح شىء في العالم – برأى ابن حزم – [٨٠] ان يأمر الانسان بشىء لاياخذ به في نفسه ، اى ان ينهى عن شىء يستعمله ، واقبح منه من لم يأمر بخير ولانهى عن شر وهو مع ذلك يعمل الشر ولا يعمل الخير [٨١] ويأتى بمثال شعري من قول ابى الاسود الدؤلى [٨٢] .

لاتنه عن خلق وتأتى مثلـــه عار عليك اذا فعلت عظيم

ثم يقول تعالى [٨٣] : (اتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم)

٦ – الصداقـــة والمحبـــة :

– يحد ابن حزم الصديق الذى يسره ما سره صديقه ويسوءه ما اساء صديقه[٨٤]

ويحذر من خالط الناس ، بان لا يتوهم ان كل من صحبة صديق مخلص ، اذ ربما هو عدو ومناصب [٨٥] ولكن مع هذا فلا يستعمل مع هذا سوء المعاملة ولكن يجب ان يسلك الانسان طريق الهداية حتى يفارق الناس راحلا الى ربه تعالى وهذه الطريقة هي طريق الفوز في الدين والدنيا [٨٦] وينصح ابن حزم الشخص ان يكتم سر من وثق به ، وان يعامل كل احد اجمل معاملة ولا ينصح ابن حزم بالاستكثار من الاخوان والاصدقاء . ويجب الا يكلف الصديق صديقه إلامثل ما يبذل له [٨٧] والصديق الحق من يؤثر صديقه على نفسه [٨٨] واذا نصح الانسان صديقه يجب ان ينصحه بلين [٨٩] ويقول ابن حزم ان على العاقل الا يغتر بصداقة حادثة ايام دولته ، فكل احد صديقه يومئذ [٩٠] وينصح ابن حزم: لا تصاهر الى صديق ولا تبايعة ، فما راينا هذين العملين الا سببا للقطيعة وان ظن اهل الجهل ان فيهما تأكيدا للصلة وليس الامر كذلك ، لان هذين العقدين داعيان كل واحد الى طلب حظ نفسه والمؤثرون على أنفسهم قليل جدا ، فاذا اجتمع طلب كل امرىء حظ نفسه وقعت المنازعة ، ومع وقوعها فساد المودة [٩١] .

اما المحبة عند ابن حزم فهى الرغبة في المحبوب وكراهية منافرته [٩٢] وان درجات المحبة خمسة اولها الاستحسان وهو ان يتمثل الناظر صورة المنظور اليه حسنة او يستحسن اخلاقه ، وهذا يدخل في باب التصادق ، ثم الاعجاب وهو رغبة الناظر في المنظور اليه وفي قربه ، ثم الالفة وهى الوحشة اليه متى عاب ، ثم الكلف وهو غلبة شغل البال به ، وهذا النوع يسمى العشق ، ثم الشغف وهو امتناع النوم والاكل والشرب وربما ادى ذلك الى المرض او الى التوسوس او الى الموت [٩٣] ويذكر ابن حزم ان هناك من مات اسفا على ولده كما يموت العاشق اسفا على معشوقه كما ان هناك من شهق من خوف الله تعالى ومحبته فمات . ورغم ان ابن حزم يبدأ يذكر الحب الجسدى الا انه يقول ان ذلك يلحقه الملل وان الحب الحقيقي الخالد لايكون الا في الجنة فهى دار القرار [٩٤] .

خاتمـــة :

رغم ان كتاب الاخلاق لابن حزم ليس كبير الحجم الا انه ملىء بالحكـــم والنصائح والافكار الاخلاقية ولاشك ان القضايا التى عالجها ابن حزم ، قد كتبت

فيها كثير من مفكرى وفلاسفة الاخلاق في الاسلام • ابن حزم ا تتلف عن سابقيه انه كتب الكتاب بأسلوب ادبي ، بينما نجد مثلا كتب الفارابي ا.خلاقية يغلب عليها الاسلوب الفلسفي واذا قارنا كتاب اخلاق ابن حزم مع كتب اخلاقية سابقة نجد الفروق واضحة (٩٥) فالفارابي رغم انه يمزج الآراء الفلسفية بالدينية ، الا انه السيطرة دائما للاراء الفلسفية وابو بكر الرازي يعالج المشكلات الاخلاقية بروح فلسفية لا اثر للدين فيها ويحيى بن عدى كتب كتابه تهذيب الاخلاق تحت تأثير الفلسفة دون ان يكون هناك اثر لدين • اما مسكويه ففى كتاباته الاخلاقية ، وكمثل في كتابه تهذيب الاخلاق ، يمزج الاراء الدينية بالفلسفية ، ويحاول دائما ان يخضع الاراء الفلسفية للدينية ولكن مع هذا فأسلوب الكتاب يغلب عليه الطابع الفلسفي • اما كتاب الاخلاق لابن حزم ، فهو يتميز بانه مزج الاراء الدينية بالفلسفية مع سيطرة الروح الدينية على الكتاب •

الهوامش

(١) طبع الكتاب عدة طبعات في القاهرة والاسكندرية ، فقد طبع لاول مرة فى القاهرة سنة ١٩٠٨ تحقيق احمد عمر المحمصانى وطبعة ثانية دون تاريخ ، وطبعة ثالثة تحقيق احسان رشيد عباس • اما في الاسكندرية فقد طبع عام ١٩١٣ في مطبعة خرجى غرزوزى ، وطبعة ثانية في الاسكندرية ايضا • أما في بحثنا هذا ، فسنعتمد على طبعة حديثة بعنوان كتاب الاخلاق والسير أما في بحثنا هذا ، فسنعتمد على طبعة حديثة بعنوان كتاب الاخلاق والسير، من تحقيق السيدة ندى توميش ، بيروت ١٩٦١ ، حيث حققته السيدة ندى معتمدة على الطبعات السابقة المذكورة ، مقارنة النصوص جميعا بنسخة استنبول الخطية • بالاضافة الى ترجمتها النص الى الفرنسية •

(٢) ابن حزم : كتاب الاخلاق ص ١٢ •

(٣) كتاب الاخلاق ص ٩٢

(٤) كتاب الاخلاق ص ١٢

(٥) كتاب الاخلاق ص ٥٦

(٦) كتاب الاخلاق ص ٢٧

(٧) كتاب الاخلاق ص ٧٧

مكتبة قسم اللغة العربية
كلية الآداب

(٨) كتاب الاخلاق ص ٦٣

9- Aristotle, Ethica Nilomachea. English translation,By Ross, Oxford, 1925, IX. 9. ii70a

(١٠) كتاب الاخلاق ص ١٨
(١١) كتاب الاخلاق ص ٢٢
(١٢) كتاب الاخلاق ص ٥٥
(١٣) كتاب الاخلاق ص ٥٥
(١٤) كتاب الاخلاق ص ١٢
(١٥) كتاب لاخلاق ص ٢١
(١٦) كتاب الاخلاق ص ٢٢
(١٧) كتاب الاخلاق ص ٢٢
(١٨) كتاب الاخلاق ص ١٦
(١٩) كتاب الاخلاق ص ٨٩
(٢٠) كتاب الاخلاق ص ٥٩
(٢١) كتاب الأخلاق ص ١٧
(٢٢) كتاب الاخلاق ص ٥٧

23 Plato. The republic. English translatin. By Jowett, Oxford, IV. 435.

24- Ethica Ncomachea, I, 13. ii62, ab, II,II03 a, X.2. II. 72b - Aristotle , Anim A De English trnslation By J, A. Smith, Oxford, II.3.414 a., III.432 a, 433 ab.

(٢٥) كتاب الاخلاق ص ٥٧
(٢٦) كتاب الاخلاق ص ٢٩
(٢٧) افلاطون : فيدون ، ترجمة الدكتور علي سامي النشار وعلى الشربينى في الاسكندرية / ٩٦٥ ص ٤٨ـ٥٦ ٠
(٢٨) كتاب الاخلاق ص ٢٩
(٢٩) افلاطون : فيدون ص ٨٨
(٣٠) انظر مثلا :

الكندى : رسائل الكندى الفلسفية تحقيق ابو ريده القاهرة / ١٩٥٠ جا ص ٢٧٤ ٠

أبو الرازى : رسائل فلسفية تحقيق بول كراوس ، القاهرة ١٩٤٩ ص ٢٧

الفارابي : المدينة الفاضلة ، القاهرة ـ بدون تاريخ ـ ص ٤٧ ـ ٥١ ٠

أخوان الصفاء : رسائل اخوان الصفاء ، القاهرة ١٩٢٨ ـ ج ٣ ص ٨٣

مسكوية : تهذيب الاخلاق : تحقيق قسطنط(زريق ، بيروت ١٩٦٦ ص ١٥ـ١٦ .

ابن سينا : أحول النفس ، القاهرة ١٩٥٢ ص ٢٧ .

(لا اعتقد المجال يتسع هنا للخوض في البرهنة على انتقال فلسفة افلاطون وارسطو الى العالم الاسلامى اذ ان هذا العمل يحتاج الى مقالة منفصلة كاملة، والمعروف ان كتب افلاطون وارسطو بدأت تترجم وتتداول في وقت مبكـــر بالنسبة للعصر الذى عاش فيه ابن حزم .

(٣١) كتاب الاخلاق ص ١٨

(٣٢) كتاب الاخلاق ص ١٩

(٣٣) كتاب الاخلاق ص ١٩

(٣٤) كتاب الاخلاق ص ١٩

(٣٥) الغزالى : احياء علوم الدين ، القاهرة ١٢٨٢ هـ ج ٣ ص ٤

(٣٦) ابن قيم الجوزيه : كتاب الروح ، القاهرة ١٩٥٧ ص ٢٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٥

(٣٧) كتاب الاخلاق ص ٢٤

(٣٨) كتاب الاخلاق ص ٢٤

(٣٩) افلاطون : فيدون ص ٤٠ـ٤٢

(٤٠) ابن المقفع : الادب الصغير ، بيروت ـ دون تاريخ ص ٢٦

(٤١) كتاب الاخلاق ص ٥٧

42- Plato, The Republic, IX°435 .

(٤٣) كتاب الاخلاق ص ٧٩ ، ص ٢٩ـ٣٠

(٤٤) كتاب الاخلاق ص ٢٧

45- Aristotle, Ethic a Nicomchea, II.7.IIo7 a- IV.9.II28 b

ارسطو : السياسات ، ترجمة اوغسطين بربارة ، بيروت ٩٥٧ ص ٢١٢

(٤٦) كتاب الاخلاق ص ٧٩

(٤٧) كتاب الاخلاق ص ٥٨

(٤٨) كتاب الاخلاق ص ٥٨

(٤٩) كتاب الاخلاق ص ٢٥

(٥٠) كتاب الاخلاق ص ٢٩

(٥١) كتاب الاخلاق ص ٣٠

(٥٢) كتاب الاخلاق ص ٥٥ـ٥٦

(٥٣) كتاب الاخلاق ص ٦٣ـ٧٠

(٥٤) كتاب الاخلاق ص ٣١ ، ٧٢ ، ٧٧

(٥٥) كتاب الاخلاق ص ٧٢

(٥٦) كتاب الاخلاق ص ٣١

(٥٧) كتاب الاخلاق ص ٣١ـ٣٢
(٥٨) كتاب الاخلاق ص ٥ ٣

59- Aristotle, Ethic a Nicom a che a, II°i°IIo3 ab.
VI°ii°II43 b
VII.5.II48 b°
X..8.II79 a, 9.II8o a,

60- Plato, The republic, II.374 .
III.4o9 .
IV. 449 .

(٦١) ابو بكر الرازى : رسائل فلسفية ص ١١٠
(٦٢) الفارابي : كتاب التنبيه على سبيل السعادة ، حيدر آباد الدكن ١٣٤٦ هـ ص ٩
الفارابي : المدينة الفاضلة ص ٩٣ـ٩٦
(٦٣) مسكويه : تهذيب الاخلاق ص ١٠ ، ١٣
(٦٤) كتاب الاخلاق ص ٥٤
(٦٥) كتاب الاخلاق ص ٨٥
(٦٦) كتاب الاخلاق ص ١٣ـ١٤
(٦٧) كتاب الاخلاق ص ١٥

68- D.M. Donaldson. Studies in Muslim Ethics, London, 1963. P.194

(٦٩) الماوردى : أدب الدنيا والدين أستنبول ١٢٩٩ هـ
الطبرسى : مكارم الاخلاق ، طهران ١٣٧٦ هـ ص ١١٥

69- A.J. Arberry, Sufisim
Oxford, 1942, P. 32 .

(٧٠) كتاب الاخلاق ص ٢٦
(٧١) كتاب الاخلاق ص ٢٣
(٧٢) كتاب الاخلاق ص ٢٤ ، ٦٠
(٧٣) كتاب الاخلاق ص ٥٩
(٧٤) كتاب الاخلاق ص ٦٧
(٧٥) كتاب الاخلاق ص ٨٧
(٧٦) كتاب الاخلاق ص ٦١
(٧٧) كتاب الاخلاق ص ٦١
(٧٨) كتاب الاخلاق ص ٦٠

(٧٩) كتاب الاخلاق ص ٦١
(٨٠) كتاب الاخلاق ص ٩١
(٨١) كتاب الاخلاق ص ٩٢
(٨٢) كتاب الاخلاق ص ٩٢
(٨٣) كتاب الاخلاق ص ٩٢
(٨٤) كتاب الاخلاق ص ٣٩
(٨٥) كتاب الاخلاق ص ٣٧
(٨٦) كتاب لاخلاق ص ٣٨
(٨٧) كتاب الاخلاق ص ٤٢
(٨٨) كتاب الاخلاق ص ٤٣
(٨٩) كتاب الاخلاق ص ٣٤
(٩٠) كتاب الاخلاق ص ٢٨
(٩١) كتاب الاخلاق ص ٤٦
(٩٢) كتاب الاخلاق ص ٤٧
(٩٣) كتاب الاخلاق ص ٥١ـ٥٢
(٩٤) كتاب الاخلاق ص ٥١

(الشيء الذى الاحظه ان ابن حزم يعالج موضوع المحبة في هذا الكتاب بروح الفقيه الاديب معانه يعالج موضوع الحب في كتابه : طوق الحمامة ، بروح فلسفية حيث ان اثر الحب الافلاطوني واضح في ثنايا الكتاب · انظر مقالتنا : الحب الافلاطوني في كتاب طوق الحمامة مجلة الاديب بيروت ١٩٧٣ عدد كانون الثاني ·

(٩٥) انظر مثلا :

أ ـ الفارابي

المدينة الفاضلة ، القاهرة ـ بدون تاريخ

الفصول المدني ، تحقيق دنلوب ، كمبرج ١٩٦١

كتاب الفصول ، حيدر اباد الدكن ١٣٤٥ هـ

التنبيه على سبيل السعادة ، حيدر اباد الدكن ١٩٤٦ هـ

رسالة في السياسة ، تحقيق لويس شيخو بيروت ١٩١١

تحصيل السعادة ، حيدر أباد الدكن ، ١٩٤٥ هـ

ب ـ ابو بكر الرازى ـ رسائل فلسفية ، تحقيق بول كراوس القاهرة ١٩٣٩

ب ـ يحى بن عدى : تطذيب الاخلاق طبع طبعات كثيرة ، انظر مثلا طبعة جرجس عوض القاهرة ١٩١٣ ·

د ـ مسكويه : تهذيب الاخلاق ، تحقيق قسطنطين زريق ، بيروت ١٩٦٦ ·

المصادر العربية :

١ ـ ابن حزم : كتاب الاخلاق لبيروت ١٩٦١
٢ ـ الكندي : رسائل الكندى الفلسفية تحقيق ابو ريده القاهرة ١٩٥٠
٣ـ افلاطون : فيدون ، ترجمة النشار والشربينى الاسكندرية / ١٩٦٥
٤ ـ ابو بكر الرازى : رسائل فلسفية ، تحقيق بول كراوسى القاهرة / ١٩٣٩
٥ ـ الفارابي : المدينة الفاضلة ، القاهرة ـ بدون تاريخ
٦ ـ اخوان الصفار : رسائل اخوان الصفار ، القاهرة ١٩٢٨ ٠
٧ ـ مسكويه : تهذيب الاخلاق بيروت ١٩٦٦
٨ ـ أبن سينا : أحوال النفس ، القاهرة ١٩٥٢
٩ ـ الغزالى : احياء علوم الدين ، القاهرة ١٢٨٢ هـ
١٠ـ ابن قيم الجوزيه : كتاب الروح ، القاهرة ١٩٥٧
١١ـ أبن المقفع : الادب الصغير ، بيروت ـ بدون تاريخ
١٢ـ ارسطو : السياسات ، ترجمة اوغسطين بربارة ، بيروت ١٩٥٧
١٣ـ الفارابي : التنبيه على سبيل السعادة ، حيدر آباد الدكن ١٣٤٦ هـ
١٤ـ الماوردى : أدب الدنيا والدين ، أستنبول ١٢٩٩ هـ
١٥ـ الطبرسى : ممكارم الاخلاق ، طهران ١٣٧٦ هـ

المصادر الاجنبية :

1. Aristotle, Ethica Nicomachea, English translation By D. Rross, Oxford . 1925,
2. Aristotle, De Anima, English translation By A.J. Smith, Oxford, 1925 .
3. Platto, The Republic, English Translation By Jowett. Oxford , 1881 .
4. D.M· Donaldson, Studies in Muslim Ethics. Londoi. 1963 ·
5. Arberry, Sufisim. Oxford, 1963.